سرية مُؤْتة

كانت غزوة مؤتة أثرًا من آثار دعوة الملوك إلى الإسلام

كانت فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سبتمبر ٦٢٩م)، بعد عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر. وقد سماها البخارى وابن إسحاق «غزوة مؤتة» لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها النبى، صلى الله عليه وسلم، ومؤتة قرية من قرى البلقاء، فى حدود الشام من ناحية الحجاز، على مرحلتين من بيت المقدس، شرقَ البحر الميت.

وكانت هذه السرية أثرًا من آثار الدعوة التى وجهها رسول الله ﷺ إلى الملوك والعظماء، فى أطراف الجزيرة العربية وفيما حولها؛ فقد ذهب الرسل الذين بعثهم رسول الله بكتبه إلى كل ملك وعظيم من هؤلاء، فمنهم من تلقى الدعوة بالقبول فأسلم؛ ومنهم من حالت ظروفه دون أن يستجيب لها، فلم يمنعه ذلك من أن يحسن لقاء الرسول ويكرم رفادته؛ ومنهم من تلقاها

بغلظة وجفاء، ولكنه لم يهن الرسول ولم يمسه بأذى. . ذلك أن العرف السياسى بين الدول يقضى بإكرام الرسل على كل حال؛ فإن الرسول ليس إلا مبلغًا عمن أرسله، فليس لأحد أن يسىء إليه مهما تضمنت الرسالة التى يحملها.

كانت هذه - ولا تزال - هى القاعدة الأساسية فى العرف الدولى، وعلى أساس هذه القاعدة بعث رسول الله ﷺ إلى الملوك والعظماء من حوله، فكلهم أكرم الرسل ولم يهنهم؛ غير أن شُرَحبيل بن عمرو الغسانى - أحد عمال الروم على الشام - شذ عن الأصول فى هذه القاعدة، وكان شذوذه جافيًا خشنًا، مهينًا للكرامة جارحًا للشعور؛ فإنه لقى الحارث بن عمير - رسول النبى إلى أمير بُصْرى - فسأله عن وجهته، فلما عرف أنه من رسل محمد أمر به فأُوثِق رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه.

كان قتل رسول النبى إلى أمير بصرى تحديًا صريحًا واعتداء مباشرًا على الإسلام

فساء ذلك رسول الله ﷺ واشتد عليه، واعتبره تحديًا صريحًا، وأمرًا لا يحسن السكوت عليه، لا سيما والإسلام لا يزال يركز دعائمه فى أنحاء الجزيرة، ولا يزال فى أشد الحاجة إلى الاحتفاظ بكل ماله من هيبة. وكانت الفكرة التى رسخت

فى نفوس الناس حينذاك أن الإسلام قوة لا تغلب، وأنه مؤيد بروح من الله عز وجل؛ وتحت تأثير هذه العقيدة أسلم كثير من الناس رَغْبًا أو رَهْبًا، ولا سيما الأعراب فى البادية، فقد كان أكثرهم يسلمون تحت عامل الرعب من قوة الإسلام، أو تحت دافع الطمع فى غنائمه. ولم يكن إذعانهم إذعان تصديق وإيمان بما فى الإسلام من عقيدة صالحة وآداب كريمة؛ إنما كان إذعان المتربص الحريص، الذى يتحين الفرص ويستملى الظروف؛ وكانوا كما يقول الله تعالى: ﴿قالت الأعْراب: آمَنَّا قل لم تُؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا ولَمَّا يَدخُل الإيمان فى قلوبكُم﴾[1]؛ وكما يقول سبحانه: ﴿ومنَ الأعْرابِ مَن يتَّخِذ ما يُنْفِقُ مَغرمًا وَيتربَّص بكُم الدوائر﴾[2].

فكان صلى الله عليه وسلم لذلك حريصًا على ألا تُنْتقص هيبةُ الإسلام فى أية ناحية، وألا تتزعزع عقيدة الناس فيه على أى حال. وكان السكوت على قتل الحارث بن عمير أمرًا يحط من كرامة الإسلام وينتقص من هيبته؛ فكان لا بد من عمل يحفظ على الإسلام هيبته، ويُشعر الناس فى داخل الجزيرة وخارجها أن الإسلام قوة لا يستهان بها؛ ومن أجل هذا قرر

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٢) سورة التوبة الآية ٩٨.

رسول الله ﷺ أن يبعث سريته هذه إلى الشام، حيث قتل الحارث بن عمير، لتأديب ذلك المعتدى، وغسل ما لحق بدولة الإسلام من مهانة فى شخص سفيرها إلى أمير بصرى.

إعداد الجيش ورسم الخطة

ونَدَب صلى الله عليه وسلم الناس فأسرعوا، وعسكروا «بالجُرف» من أطراف المدينة حتى اكتملوا ثلاثة آلاف. فلما أعدهم رسول الله وهيأهم للقتال قال لهم: «أمير القوم زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتَضِ المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم». وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير فيدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا قبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن لم يستجيبوا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم. وأوصاهم ألا يغدِروا، ولا يقتلوا وليدًا ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلا بصومعته؛ ولا يقربوا نخلا، ولا يقطعوا شجرًا، ولا يهدموا بناء.

الروم يستقبلون جيش المسلمين باستعداد هائل

وخرج الجيش مزوَّدًا بوصايا رسول الله ﷺ مشيعًا بدعوات المسلمين؛ وخرج معه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى

إذا بلغ ثَنِيَّة الوداع ودعه ثم عاد إلى المدينة. وكانت الخطة التى سار على أساسها الجيش أن يفاجئ القوم ويأخذهم على غرة، ولكن القوم علموا بنبأ الجيش فأخذوا يستعدون له؛ وكان استعدادهم بالغًا غايته فى عدد الرجال وآلات القتال، وفى كل ما يُبْهر ويَرُوع من مظاهر القوة والغنى، والأبهة والسلطان، حتى ذهل رجال من المسلمين من هول ما رأوا من كثرة الروم وأُبَّتهم وعظيم أهبتهم.

روى الواقدى - بسنده عن أبى هريرة - قال: شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا رأينا مالا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكُراع، والحرير والديباج؛ فَبرِق بصرى[1]، فقال لى ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعًا كثيرة.. قلت: نعم. قال: إنك لم تشهد بدرًا معنا، إنا لم نُنصر بالكثرة!

وتكاد تجمع الروايات على أن الروم استقبلوا المسلمين بمائتى ألف مقاتل، مائة ألف من الروم ومائة ألف من نصارى العرب التابعين لهم. ويذهب المؤرخون فى تعليل اجتماع هذا العدد الكثير مذهبين: فريق يقول إن هذا العدد إنما أعد إعدادًا، وأن شرحبيل بن عمرو قام بجمع العرب وتجهيزهم حتى اجتمع له

(١) برق بصرى: تحير فلم يطرف.

أكثر من مائة ألف، وأن هرقل أمده من الروم بمائة ألف أخرى؛ وفريق يقول إن العدد الذى كان مع هرقل إنما جاء ليؤدى معه فريضة الحج إلى بيت المقدس، وللاحتفال باسترداد الصليب الأكبر بعد هزيمة الفرس. وسواء أكان هذا أم ذاك فإن لقاء المسلمين بمثل هذا العدد الضخم، يُشعر بأن القوم قد فزعوا حين علموا بأن المسلمين قد خرجوا لغزوهم فى بلادهم، وأنهم أخذوا يتخيلون مدى هذه القوة الخارقة، التى أذاعت الرعب فى أنحاء الجزيرة، والتى لم تستطع قوة الأحزاب مجتمعة أن تظهر عليها، ولم تستطع حصون اليهود - على قوتها - أن تثبت أمامها، والتى اجترأ محمد صاحبها على أن يدعو هرقل فى سلطانه وقوته إلى اتباعه.. نعم، فلابد أنهم أخذوا يتصورون مدى هذه القوة ويتخيلونها شيئًا لا يطاق، فأخذوا يعدون لها كل ما يستطيعون من قوة؛ وإلا، فهل كان من الطبيعى أن يجتمع مائتا ألف لمقاتلة ثلاثة آلاف؟

ابن رواحة يشجع المؤمنين على لقاء الروم

ولم يكن المسلمون يقدرون ما أعد القوم لهم. فلما وصلوا إلى «معان» - وهى حصن كبير من أرض فلسطين[1] - علموا

(١) على خمسة أيام من دمشق بمشى الإبل.

بما أعدوا لهم من العَدد والعتاد، فأقاموا هناك ليلتين يتشاورون فى أمرهم؛ ثم بدا لهم أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بعدد عدوهم، فإما أن يمدهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمر فيمضوا له. ولكن عبد الله بن رواحة غلبت عليه حمية الإيمان، فقام يشجع القوم ويقول لهم: "يا قوم، إن التى تكرهونها لهى الشهادة التى خرجتم تطلبونها.. والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به.. انطلقوا، فوالله لقد رأيتُنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد.. انطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ورسوله، وليس لوعد الله خلف؛ وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان".. !

وفعلت كلمات ابن رواحة فى نفوس الناس ما يفعل السحر، فمضوا إلى لقاء العدو لا يبالون بشىء، وانطلقوا يسيرون حتى وصلوا بعد ليلتين إلى تخوم البلقاء من أرض الشام، وهناك وجدوا جموع العدو محشودة فى قرية يقال لها «مشارف». وأخذت فيالق العدو تدنو منهم، فانحازوا إلى قرية «مؤتة» ليتحصنوا بها؛ ولكن الروم انحدروا إليهم كانحدار السيل، وأقبلوا بخيلهم ورَجِلِهم فى مظهر يبهر الأبصار ويذهل العقول؛ فعبأ

المسلمون قوتهم وقاتلوا فى نظام «ضغط الجموع بالقلب» - كما يقول الصاغ (أركان الحرب) محمد عبد الفتاح إبراهيم - وجعلوا فى كل من الجنبين قوة تحول دون إحداق العدو بهم، فكان فى الميمنة قُطْبة بن قتادة، وفى الميسرة عُبادة بن مالك. والتحم الجيشان فى قتال قريب المدى عنيف الاشتباك.

كان القتال بالغًا غاية الشدة فى هذه المعركة

وقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقاتل معه المسلمون على صفوفهم، حتى شاط[1] فى رماح القوم. فلما قتل زيد أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، فجعل يقاتل بها مستميتًا، حتى إذا ألحَمَه[2] القتال وأحاط به العدو، اقتحم عن فرسه فعَقَرها بسيفه، ثم اندفع يقاتل القوم راجلا واللواء بيمنه، فضُربت يمينه فقُطعت، فأخذ اللواء بيساره، فضربت يساره فقطعت، فاحتضن اللواء بعَضُديه حتى قتل، فوُجد به نحو تسعين طعنة. فلما قتل جعفر أخذ اللواء عبد الله بن رواحة..

ويبدو أن القتال فى هذه المعركة كان أعنف قتال قاتله

(١) حتى شاط: تفجر دمه وتمزقت أوصاله.
(٢) حتى ألحمه: زحمه وأجهده.

المسلمون، حتى نسوا فيه أنفسهم، وشغلوا به عن طعامهم وشرابهم؛ فقد روى ابن إسحاق أن عبد الله بن رواحة لما نزل أتاه ابن عم له بعَرْق[1] من لحم، فقال له: "شُد بهذا صُلْبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت". فأخذه من يده فانتَهس منه نَهسة[2]، ثم سمع الحَطْمة[3] في ناحية الناس، فقال: "وأنت في الدنيا".. ؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

حيلة خالد في إنقاذ الجيش

واصطلح الناس على خالد بن الوليد بعد مقتل ابن رواحة. فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى[4] بهم حتى أتى المساء، فانحاز بأصحابه وانحاز عنه المشركون. "وتحت ستار الليل بدّل خالد مواقف الجيش، فنقّل الميمنة إلى الميسرة، ونقل الميسرة إلى الميمنة، وجعل الساقة في موضع المقدمة، وجعل المقدمة في موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار،

(١) عرق من لحم: عظم فيه بعض اللحم.

(٢) انتهس منه نهسة: أخذ منه قليلا.

(٣) الحطمة: زحام الناس وحطم بعضهم بعضا.

(٤) خاشى بتروى: تروى بالحاء وبالخاء، والمقصود أنه داور العدو وحاوره بهم.

ويكثرون الجلبة عند طلوع النهار"[1]. فلما التقى الفريقان فى الصباح، رأى كل فريق من العدو أمامه وجوهًا غير التى رآها بالأمس، ورايات غير التى رآها، فظنوا أن المسلمين قد جاء إليهم المدد، فتهيبوا لقاءهم؛ وكان المسلمون قد أجهدوهم فى قتال الأمس، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

ونجحت حيلة خالد فى خداع القوم، فجعل يداور بأصحابه، ويتراجع بهم فى مهارة وحذق، حتى ظن الروم أنه يريد أن يستدرجهم إلى الصحراء، فلم يتبعوه. وما زال خالد يناوش جموع العدو حتى أفلت بجيشه، وانتهى به إلى هذه النهاية المأمونة، فصنع بذلك خير ما يصنعه القائد اللبق البصير.. وخير ما يصنع فى مثل ذلك الموقف هو الارتداد المأمون، "وهو أصعب من النصر فى بعض المآزق؛ لأن النصر ميسور مع اجتماع العُدة واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف الموقفين، إلا أن تكون له خبرة بالقيادة، تكافئ الرجحان فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه"[1] وما عهدنا ببعيد بموقعة «دَنْكِرك»، حيث كان الإنجليز يفخرون بأنهم استطاعوا الارتداد أمام جيوش الألمان فى الحرب العالمية الأخيرة، حتى كانوا يسمونه «بالهزيمة المنتصرة».

---

(١) عبقرية خالد.

الرسول ينعى أمراء الجيش ويثنى على شجاعة خالد

وهكذا أنقذ خالد جيشه، وعاد به دون أن يفقد سوى اثنى عشر رجلا. وقبل أن يبارح الجيش أرض مؤتة، نعى رسول الله ﷺ إلى أصحابه فى المدينة أمراءه الثلاثة، ودموعه تفيض حزنًا عليهم.

روى البخارى - بسنده عن أنس بن مالك - أن رسول الله ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تَذْرِفانِ - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليه».

وكان وقع الخبر شديدًا على نفوس المسلمين، حتى خرج أهل المدينة كبارًا وصغارًا يستقبلون الجيش، وخرج الصبيان يشتدون حتى أشفق عليهم رسول الله ﷺ من طول ما جروا، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر». فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه على دابته، حتى التقوا بالجيش عند «الجُرْف».

وظن الناس أن الجيش قد انهزم، فجعلوا يَحْثُون فى وجوههم التراب ويقولون: "يا فُرَّار! أفررتم فى سبيل الله".. ؟

فيقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُرّار إن شاء الله تعالى».

موقف ابن رواحة

وتختلف الروايات فى موقف ابن رواحة حين أخذ الراية بعد جعفر؛ فقد روى ابن إسحاق أن عبدالله بن رواحة لما أخذ الراية تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال :

أقسمت يا نفسُ لَتنْزِلِنّهْ لتنزلن أو لَتكرَهِنّهْ
قد طالما قد كنت مطمئنهْ مالى أراك تكرهين الجنة؟

* * *

يا نفسُ إلا تُقتَلى تموتى هذا حِمام الموت قد صَليتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيت إن تفعلى فعلهما هُديتِ

ثم نزل، فقاتل حتى قتل..

ويقول الواقدى : إنه طاعن القوم ساعة ثم ولى، فلام نفسه، ثم نزل عن فرسه وقال لنفسه :

أقسمت يا نفسى لتنزلنّه إنى أراك تكرهين الجنه

فنزل فطاعن القوم حتى قتل. ولم يذكر البيهقى ولا موسى بن عقبة ـ فيما نقل عنهما ابن كثير ـ شيئًا عن هذا

التردد. كذلك لم يذكره المقريزى فى «إمتاع الأسماع»، ولا ابن سعد فى «الطبقات الكبرى».

وعبد الله بن رواحة - فيما يقول ابن إسحاق وغيره - كان هو الذى شجع المسلمين ودفعهم إلى الإقدام حين ترددوا فى قتال الروم، وهو الذى ذكر عنه ابن إسحاق - فى سياق روايته السابقة - أنه رمى قطعة اللحم من فمه حين رأى المعركة تدور، واستكثر على نفسه أن يبقى لحظة فى الدنيا وهو بعيد عن المعركة.. أفلا يكون من التناقض أن يكون رجل هذه روحه وهذا يقينه، يدخل المعركة وهو متردد خائف؟ ثم أفلا يكون من التناقض أن يشجع الناس على ملاقاة الروم، ثم يجبُن هو عن ملاقاتهم؟ فأين كان ابن رواحة منذ بدأت المعركة بين المسلمين والروم؟ ألم يكن يقاتل فيها كجندى من جنود المسلمين؟ فهل من الطبيعى أن يكون مقدامًا شجاعًا وهو جندى، ثم يكون مترددًا خائفًا وهو قائد؟

يخيل إلىّ أن ابن إسحاق - رحمه الله - أخذ الرواية على علاتها فرواها دون أن يعيد فيها النظر؛ ولو أنه نظر فيها نظرة لبان له أن فيها تناقضًا واضحًا بين أولها وآخرها، وأن مواقف ابن رواحة قبل المعركة وفى خلالها يناقض بعضها بعضًا.

شعر ابن رواحة وما يحمله من معانى التشجيع للنفس

كما يخيل إلىّ أن الشعر الذى نسب إلى ابن رواحة هو الذى أملى على الرواة هذه الرواية. ولكن هذا الشعر - وإن كان فى ظاهره يشعر بالتردد - هو فى حقيقته محاورة بين الشاعر ونفسه، تحمل كل معانى التشجيع للنفس عند الإقدام على الموت، حتى تُقْدم وهى مطمئنة إلى أن الموت فى هذا الموقف خير من الحياة؛ وإلا، فقد روى الواقدى عن رسول الله ﷺ أن زيدًا وجعفرًا عرض لكل منهما الشيطان حين أخذ الراية، فحبَّب إليه الحياة وكرَّه إليه الموت ومناه الدنيا، فسخر كلاهما من الشيطان، وقال له: "الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تُمَنِّينى الدنيا"؟ ثم مضى قُدُما حتى استُشهد.. فإذا جاز لنا أن نأخذ بظاهر القول، جاز أن نقول بأن زيدًا وجعفرًا ترددا ثم أقدما، كما تردد ابن رواحة ثم أقدم.

أما ما رواه ابن إسحاق من أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر ينعى أمراءه إلى أصحابه -: «لقد رُفعوا إلىّ فى الجنة - فيما يرى النائم - على سرر من ذهب، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريرَىْ صاحبيه، فقلت: عم هذا؟ فقيل لى: مضيا، وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد

ثم مضى».. فقد ضعفه ابن كثير وقال: إن ابن إسحاق ذكره منقطعَ السند. ثم عارضه بالحديث السابق الذى رواه البخارى بسنده عن أنس بن مالك.

على أن ابن إسحاق روى فى أخبار هذه الغزوة خبرًا يدل على أن ابن رواحة خرج من المدينة، وهو لا يتمنى شيئًا كما يتمنى قِتْلة فى سبيل الله تدل على حسن بلائه، وصدق جهاده فى الله عز وجل؛ فقد ذكر ابن إسحاق أن الجيش حين تحرك للمسير، وقف المسلمون يودعونه ويقولون: "صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين"! فقال عبد الله بن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا[1]
أو طعنةً بيدَىْ حَرَّانَ مُجهِزةً ... بحربة تَنْفُذ الأحشاء والكبدا[2]
حتى يقال إذا مروا على جَدَثى ... يا أَرْشَدَ الله من غازٍ وقد رَشَدا[3]

فكيف يوصف رجل هذه روحه بالتردد، فى الوقت الذى تسنح الفرصة فيه لتحقيق أمنيته الغالية، وطلبته التى كان يرجوها ويدعو الله بها جاهدًا؟..

أعتقد أن ابن رواحة قد ظُلِم بهذه الرواية ظلمًا ينبغى أن

---

(١) الفرغ: السعة، والزبد: رغوة الدم.
(٢) الحران: العطشان، ولعله هنا بمعنى الظامئ إلى دم عدوه.
(٣) الجدث: القبر.

يزاح عنه، وأن يحتفظ له التاريخ بحقه كاملا، كرجل جاهد فى الله مخلصًا، وأقبل على الموت فى سبيله مقدامًا غير هياب، مطمئنًا غير جازع. وعند الله فى ذاك الجزاء.

ماذا سجلت هذه الغزوة للمسلمين

وكما تختلف الروايات فى تصوير موقف ابن رواحة، تختلف فى تصوير موقف المسلمين بعد مقتل ابن رواحة، وفى النهاية التى انتهت إليها هذه الغزوة: أهى الهزيمة للمسلمين أم النصر لهم..؟

فيروى ابن سعد عن أبى عامر - وكان شهد المعركة - "أن المسلمين انهزموا بعد مقتل ابن رواحة أسوأ هزيمة، وتفرقوا حتى لم يُر اثنان جميعًا؛ ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار فركزه أمام الناس، وجعل يصيح بهم فيجتمعون، حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد فدفعه إليه. فلما أخذه خالد حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا".

ويروى الواقدى عن العطاف بن خالد: "أنه لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقة وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة؛

فأنكر المشركون ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقالوا: قد جاءهم مدد؛ فرُعبوا وانكشفوا منهزمين؛ فقتلوا منهم مَقْتَلةً لم يقتلها قوم".

ويقول موسى بن عقبة: "اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزومىّ، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين".

ويقول ابن إسحاق: "أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين اصْطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم، ثم انحاز وانْحيز عنه حتى انصرف بالناس".

وقد نقل ابن كثير فى البداية والنهاية سياق ابن إسحاق والواقدى وموسى بن عقبة، ثم قال: "ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وقول الباقين؛ وهو أن خالدًا لما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين، حتى خلصهم من أيدى الكافرين الروم والمستعربة، فلما أصبح وحوَّل الجيش ميمنةً وميسرة، ومقدِّمة وساقة - كما ذكره الواقدى - توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله".. واستظهر ابن كثير على رأيه هذا بقول رسول الله ﷺ فى

الحديث الذى رواه البخارى عن أنس بن مالك : «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه». كما استشهد بما ذكره الواقدى وموسى بن عقبة، وبما ذكره ابن إسحاق من أن قطبة بن قتادة - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن رافلة، وهو أمير عرب النصارى، فقتله وقال يفتخر بذلك :

طعنت ابن رافلة بن الأراشِ ... برمح مضى فيه ثم انحطمْ
ضربت على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السَّلَمْ[1]

إنما تقاس الهزيمة والنصر فى المعارك بما تحققه الأمة من أغراضها

وسواء أكان الذى وقع هو ما رواه ابن إسحاق أم كان ما رواه غيره، فإنه لم يكن من الطبيعى أن يستطيع ثلاثة آلاف أن يهزموا مائتى ألف حتى يستأسروا لهم، أو أن يقتلوهم حتى يبيدوهم؛ ويكفى أنهم استطاعوا مع قلة عددهم أن يقفوا أمام هذا العدد الضخم يومًا أو أكثر من يوم، فى قتال طاحن عنيف، ثم يخرجون ولم يقتل منهم سوى اثنى عشر رجلا. فلو

(١) السلم : شجر شائك من أشجار البادية.

أن المسلمين خرجوا من المعركة مع هذا ولم يقتلوا من العدو رجلا واحدًا، لكان هذا نصرًا لهم أى نصر، فكيف وقد جاء فى بعض الروايات أنهم قتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم، وأن المشركين انهزموا أمامهم حتى كانوا يضعون السيوف فيهم حيث شاءوا ؟

وقد يقال : إن فى هذا مبالغة، ولكن الصور التى قدمها المسلمون لقتالهم فى هذه الغزوة، تصدق هذا الزعم إلى حد كبير؛ فقد قتل الأمراء الثلاثة تباعًا فى أول يوم، وكان مقتضى هذا أن يفر المسلمون أو ينهزموا؛ إذ كانت العادة فى ذلك الزمان أن يفر الجيش إذا قتل أميره. ولعل هذا هو الذى جعل العدو يركز هجومه على الأمراء، ولكن المسلمين مع هذا لم يفروا، بل صمدوا وثبتوا لأعدائهم حتى أتى الليل، فانحاز الفريقان كل إلى معسكره. وكان من الممكن أن ينتهز المسلمون هذه الفرصة فيفروا تحت ستار الليل، وهم آمنون أن يلحق العدو بهم، ولكنهم لم يفعلوا، بل أصبحوا غادين إلى القتال فى هيئة أرهبت الروم وزلزلتهم، حتى فقدوا ثقتهم بأنفسهم، فتقاعسوا عن مهاجمتهم، واستبشروا بارتدادهم عنهم.. فهذه صورة من صور القتال الجماعى للمسلمين فى هذه المعركة.

أما صورة القتال الفردى لكل رجل منهم، فقد قدمها

جعفر بن أبى طالب حين نـزل المعمعـة على فـرسه يـطاعن الأعداء، فلما ألحمه القتال نزل عـن فـرسه فعقـرها بسـيفه، ثم قاتل راجلا واللواء بيمنه، فلما قطعت يمينه أخذ اللواء بيسـاره، فلما قطعت يساره أخذ اللواء بعضُديه حتى قتل. وقـدمها كذلك خالد بن الوليد حين قال ـ فيما رواه البخارى عنه ـ : "لقد دُقَّ فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فـا بـقى فى يـدى إلا صـفحة يمانية". فكم يا تُرى قتل خالد بهذه الأسـياف؟ وكم يـا تـرى قتل غيرُه من الأبطال والشجعان من حملة القرآن؟..

وقد نلمح صورة أخرى مـن صـور الإقـدام والاقتحـام على الموت دون مبالاة، فى هذا العدد من الطعنات التى وجهـت إلى جعفر، حتى قيل إنها جاوزت التسعين طعنـة.. إنهـا إن دلـت على شىء فإنما تدل على مدى استماتة المسلم فى سبيل الدفاع عن دينه، وعلى مدى إمعانه فى صفوف العدو، غير مكترث بمـا هـو عليه من قوة وكثرة. كما أن هذا العدد من السيوف التى اندقت فى يد خالد، يدل على مدى العنف الـذى كانـت تـوجه بـه طعنات المسلمين إلى صـدور المشركين؛ وإلا ففـم انـدقت هـذه السيوف التسعة؟..

وصورة أخرى من صور القتال فى هذه الغزوة، نلمـح فيهـا الروح التى أقبل بها المسلمون على المعـركة، حـين نـستعيد كلام

ابن رواحة وهو يشجع أصحابه على ملاقاة الروم، وحين نستعيد كلام ثابت بن أرقم وهو يرد على أبي هريرة شجاعته، حين بهرته كثرة الروم وعظمة استعدادهم..

وصورة أخرى كذلك نلمس فيها روح المسلمين العامة، حين نستعرض منظر أهل المدينة وهم يستقبلون الجيش صغارًا وكبارًا، يحثون في وجهه التراب ويعيّرونه بالفرار؛ فيصحح لهم الرسول هذه الفكرة الخاطئة، ويزن الأمور بميزانها الصحيح، ويقدرها قدرَها الواجب، فيقول: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله».

ماذا تركت غزوة مؤتة في نفوس الروم

إن هذه الصورة وغيرها مما نستأنس به من شواهد المعركة، ترسم لنا الصورة العامة التي تركها المسلمون في أذهان أعدائهم يوم مؤتة. فمن الإسراف والمبالغة في التجني إذن، أن نكلف المسلمين أن يفعلوا فوق ما فعلوا، حتى نقول بأنهم ظهروا على المشركين في هذه الغزوة. وإذا كانت الأمور بنتائجها والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهورًا على عدوهم أنهم تركوا في نفوسهم أثرًا من الرهبة، جعلهم يحجمون عن قتالهم، ويَنْكلون عن متابعتهم؛ وأن هذا الأثر كان كافيًا لتأمين الحدود من ناحية

الشام، فلم يحاول الروم ولا أتباعهم من العرب أن يهاجموا المسلمين بعدها أبدًا، وقد ظل هذا الأثر باقيًا حتى يوم «تبوك»، حين ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه لملاقاة الروم بعد عام، فلم يستطيعوا مجابهة المسلمين يومئذ، وآثروا السلامة بأنفسهم على أن يلاقوا هذا العدو الكاسر، الذى باع نفسه فى سبيل غايته، فلا يبالى الموت ولا يرهب النزال مهما بلغت قوة عدوه.

وكما أن هذه الصورة من البسالة تركت فى نفوس الروم وأتباعهم هذا الأثر البعيد، فقد تركت فى نفوس القبائل الضاربة على أطراف الشام والعراق أثرًا قويًا من الإعجاب بالمسلمين، مما جعل كثيرًا من بنى سُلَيْم وأشجع وغطفان وعَبْس وذُبْيان وفَزارَة يدخلون فى الإسلام طائعين.